المحاضرة العاشرة:

النظرية البنائية في العلاقات الدولية

تعتبر البنائية مقترب أكثر من كونها نظرية، لأنها مدخل فكري يقدم منهجا لدراسة العلاقات الدولية بمنظور سوسيولوجي، فهي قبل ثمانينيات القرن العشرين كانت اتجاها ابستمولوجيا فلسفيا، محور اهتمامها: كيف تتشكل المعاني لدى البشر في سياق التفاعل بين خبراتهم وأفكارهم.

تعتبر من أهم التطورات داخل علم العلاقات الدولية، نظرا لكونها محاولة للربط بين كل الاسهامات الوضعية وما بعد الوضعية، فهي تشترك من ناحية مع كل من الواقعية والليبيرالية في السمات الأساسية للسياسات العالمية، وهذا هو الجانب الوضعي الذي تتبناه، إلا أنها تهتم من ناحية أخرى بالبعد الاجتماعي للسياسة العالمية خاصة ما يتعلق بهوية الفاعل والطريقة التي يتشكل بها سلوكهم وأفعالهم، إذ ترفض ما يراه الوضعيون من أن العلاقات الدولية محصورة في الأفعال والتفاعلات العقلية داخل قيود البيئة المادية المحيطة (الواقعية)، أو ضمن القيود المؤسسية (الليبرالية).

من هنا، جاءت النظرية البنائية لتقدم نفسها كجسر يربط بين النظريات الوضعية والنظريات ما بعد الوضعية، كونها تنطلق من الفرضيات الأساسية للنظريات الوضعية/ التفسيرية، بأن الدولة فاعل أساسي في العلاقات الدولية وتسعى لتحقيق مصالحها الوطنية، وفي الوقت نفسه تسعى إلى تسليط الضوء على دور الهوية والثقافة والأفكار في تحديد المصلحة الوطنية للفاعل وبذلك يتحدد سلوكه في السياسة الدولية.

1- نشأة وتطور النظرية البنائية في العلاقات الدولية:

لقد ولدت البنائية في ظل العلوم الأخرى بعيدة عن علم السياسية، خاصة علم الاجتماع، والفلسفة، والأنثروبولوجيا، من خلال انتاج وإعادة الإنتاج في الممارسات الاجتماعية في ظروف اقتصادية وتاريخية، حيث كان لها وجود مؤثر في فرع العلوم الاجتماعية، من خلال النظرية البنائية الاجتماعية الوظيفية، التي شغلت حيزا كبيرا خاصة في بدايات القرن العشرين، على يد **إيميل دوركايم**، الذي اهتم بها وبدور الأفكار في الاجتماعية وكيف تكون مسببا اجتماعيا..

أما **تالكون بارسونز** فإنه وضع أسس البنائية الاجتماعية، ورأى أن الفعل الاجتماعي يتكون من فاعلين وكل طرف أو فاعل له فاعليته في السلوك، وتشارك الأطراف المعنية وفق ما زودت من قيم، ومعتقدات ورموز...، ومكونات البنائية: السلوك، المكانة، الدور.

أما في العلاقات الدولية، فإن البنائية تمثل ثمرة تطور النظرية النقدية للحوار الثالث في الثمانينات، والتي أولت الإلمام بكل عناصر ومتغيرات النظرية بغية تقديم منظور متكامل يؤسس لبناء نظرية عامة في العلاقات الدولية.

فهناك من يصفها بالجسر الرباط Bridge Gap بين الاتجاهات الوضعية التفسيرية والنظريات ما بعد الوضعية التأملية، لأنها حسبهم: محاولة تنظيرية تركيبية أكثر منها نظرة نقدية أو تدي لدراسات وأبحاث المدرستين الواقعية والليبرالية الجديتين.

إن نشأة البنائية في العلاقات الدولية مرتبطة بشكل وثيق بانتهاء الحرب الباردة، وبالتحديد أواخر الثمانينات من القرن 20، وهو الحدث الذي فشلت النظريات التقليدية -الواقعية والليبرالية- بتفسيره.

بل والأكثر من ذلك فشلتا في شرح التغير الشامل في المنظومة الدولية، بينما تمتلك البنائية تفسيرا له، خصوصا ما يتعلق بالثورة التي أحدثها **ميخائيل غورباتشوف** في السياسة الخارجية السوفياتية باعتناقه أفكار جديدة كالأمن المشترك.

2- النظرية البنائية في العلاقات الدولية:

تركز البنائية بشكل أساسي على الوعي الإنساني والدور الذي يلعبه في الشؤون الدولية، بعكس النظريات الأخرى وخاصة الواقعية الجديدة التي تركز على الجانب المادي وعلى كيفية توزع القوة من عسكرية وقدرات اقتصادية، في تحديد توازن القوى وفي شرح سلوك الدول، حيث يرفض البنائيون هذا التفسير المادي الحصري، ويعتبرون أن أهم عنصر في العلاقات الدولية هو اجتماعي وليس مادي، أي أن عالمنا بالنسبة للبنائية مكون اجتماعيا في المقام الأول.

ويعد **نيكولاس أوناف Onuf Nicholas** أول من استعمل مصطلح **البنائية Constrivtism** في حقل العلاقات الدولية في كتابه **عالم من صنعنا World of Our Making** عام 1989، منتقدا فيه أفكار وفرضيات **والتز** الجديدة.

إضافة إلى مقال **ألكساندروندت Wendet Alexender** الصادر عام 1992 بعنوان: «**الفوضى ما تصنعه منها الدول: البناء الاجتماعي لسياسة القوة**» « **Power Anarchy is what States make of it : The Tocial Tonstruction of Politics**»، والذي يلقب بأب البنائية لما قدمه من إسهامات في تطوير موقف التفسيريين الاجتماعيين **constructivst Social**، كما مثلت كتاباته مرجعية لدراسة السياسة الدولية.

بالنسبة **لويندت** فإن عملية التفاعل بين الدول هي التي تحدد الهويات وتخلق المصالح، بعكس ما يفترض الواقعيون بأن الهويات والمصالح موجودة مسبقا، أي الدول تعرف هويتها وماذا تريد قبل أن تبدأ بالتفاعل مع دول أخرى بالنسبة للواقعية.

كما يطرح **ويندت** مثالا آخر ويقول إذا قررت الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي أنهما ليسا عدوتين، فإن الحرب الباردة ستنتهي، أي أن المعنى الجمعي هو الذي يكون البنية التي تنظم وتحدد أفعالنا وتحركاتنا.

وعليه، تفهم البنائية على أنها منظور اجتماعي/معرفي، يرى أن النظام الدولي بناء اجتماعي يتكون عبر التفاعلات الخطابية والممارسات المتكررة بين الفاعلين (دول، منظمات، فواعل غير حكومية.

تذهب إلى أن الهوية والمصلحة لا تفهمان كمعطيين ثابتين، بل يتم بناؤهما تاريخيا وثقافيا وسياسيا من خلال الأفكار السائدة والتصورات المتبادلة.

3- اسهامات أساسية في التنظير البنائي:

-كتابات **جون راغي : مركزية الأفكاروالمعايير في السياسة الدولية** سنة 1983، ردا على أعمال **والتز : نظرية السياسة الدولية .**

- منشور **ريتشارد أشلي** سنة 1984، حيث وجه انتقادات شديدة للفكر الواقعي الجديد وتمسكه بالدولة كفاعل أساسي.

- **ألكساندروندت** الذي أدخل إلى دراسة العلاقات الدولية إشكالية الفاعل بالبنية وعلاقتها بالسياسة الدولية، حيث أكد على فشل رؤية البنية تفعل أكثر من مجرد تقييد للفواعل، فهي أيضا تشكل الأفكار والهويات ومصالح الفواعل.

- أعمال **فريد كراتشويل**، حيث أدخل لدراسة العلاقات الدولية مسألة التمييز بين القواعد المنظمة والقواعد المؤسسة، كما اهتم بتبني مناهج لفهم كيف أن العوامل تعطي معنى لهذه القيم وتفهمها.

4- رائد البنائية في العلاقات الدولية:

يعتبر **ألكسندرو اندت Alexander Wendt** ، أشهر من كتب في هذا المجال، وتعتبر اسهاماته الأكثر تأثيرا في تطوير موقف واضح للبنيوية/ البنائية الاجتماعية، حيث يرى أن عودة التفكير البنيوي في السياسات الدولية تسارع مع نهاية الحرب الباردة نظرا للصعوبة التي واجهتها التيارات الأساسية في نظرية العلاقات الدولية في شرح هذا التطور أو التغير النظمي بشكل عام .

ويرجع هذه الصعوبات إلى التوجه المادي والفردي للعلاقات الدولية، ومن ثم فإن الحقل بحاجة إلى نظرة أكثر مثالية وشمولا للسياسات الدولية.

5- الافتراضان الأساسيان للبنائية:

***الأول: تلعب الأفكار المشتركة** الدور الأساسي في تحديد هياكل التجمعات البشرية، وليس القوى المادية كما تفترض الواقعية والليبرالية، البنائية ترى أن:

- التفاعلات بين الدول لا تحددها القوة العسكرية أو الاقتصادية وحدها؛
- بل تحددها **المعاني المشتركة**، مثل: الثقة، والعداوة، والصداقة، والشرعية، والتصورات الثقافية والسياسية.

هذا يعني أن **الواقع الدولي ليس معطى ماديا**، بل مصنوع اجتماعيا.

***الثاني**: تلعب هذه الأفكار المشتركة دورا في صياغة **مصالح الفواعل وهوياتها**، أي أنها ليست شيئا ممنوحا، بل يتشكل ويعاد تشكيله من خلال السياق الذي يتواجد فيه، فالهويات والمصالح ليست ثابتة أو طبيعية، بل تبنى وتعاد صياغتها من خلال الأفكار والسياقات الاجتماعية = فالبنائية تؤكد على أن:

- الدولة لا تمتلك مصلحة قبل أن تحدد **هويتها**.
- الهوية تحدد من خلال: الثقافة السياسية، والتجارب التاريخية، والخطاب السياسي، والتفاعل مع الآخرين

وبذلك تصبح المصالح **نتاج عملية اجتماعية**، وليست شيئا جاهزا تحدده القوة أو الاقتصاد فقط.

وعليه، تركز النظرية البنائية على **دور الثقافة والقيم والأفكار في العلاقات الدولية**، وتتناول بالتحليل **قضايا الهوية والمصالح والأفضليات والمعايير (Norms)**.

فهي نظرية **نظامية (نسقية)** تعتمد في جوهرها على علم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي، وفيها تعتبر **الهويات والمصالح المتغير التابع** الذي ينبغي **دراسته وفهمه**، ويرى أنصار هذا الطرح أن الاعتبارات المادية وحدها لا تقدم تفسيرا مقنعا للعديد من الحالات في السياسات الدولية، (عكس الواقعية والليبرالية).

6- المفاهيم الأساسية في التحليل البنائي في العلاقات الدولية:

***- تذاتانية Intersubjective:** الفهم المشترك، القصد الجماعي، الأفكار المشتركة.

***- الهوية Identity:** من نحن؟ كيف نرى أنفسنا ونعرف الآخرين؟

الهوية تنتج أدوارا (حليف، عدو، منافس، شريك...) وتحدد ما يعد سلوكا مقبولا أو مرفوضا.

ترى البنائية بأن هوية الدولة وتحديدها لماهية نفسها متغيرة، وتعتمد على الأطر التاريخية والثقافية والاجتماعية، لذا فإن فهم الهويات محوري لفهم السياسة العالمية، فهي الطريقة التي يفهم بها الفاعل نفسه وموقعه في العالم.

الهوية ليست ثابتة بل **تتشكل عبر التفاعل الاجتماعي** مع الآخرين.

كما أن منتج الهوية لا يتحكم فيما تعنيه هذه الهوية للآخرين وإنما يحدد ذلك **هيكل التفاعل الجماعي**.

***- المعايير Norms:** قواعد السلوك المشتركة (كالسيادة، عدم الإبادة، حقوق الإنسان) تقيد وتوجه سلوك الدول.

كما أنها تشكل هوية الفاعل وخياراته وتحدد الأهداف التي تسعى لتحقيقها وتجعله يتخذ توجها معينا أو يمتنع عنه.

فهي القواعد والقيم التي يتفق عليها الفاعلون وتؤثر في سلوكهم، مثل: حظر استخدام الأسلحة الكيميائية، واحترام حقوق الإنسان، ومنع الرق، وعدم الاعتداء.

***-الأفكار Ideas :** تتمثل في:

- **الإيديولوجيات أو النظم العقائدية المشتركة**: مجموعة منتظمة من المذاهب والمعتقدات التي تعكس الاحتياجات الاجتماعية والمتطلبات مجموعة وطبقة ودولة فمثلا: أخلاقيات البروتستانت أو إيديولوجيات مثل: الليبرالية، الماركسية، والفاشية...

- **المعياري أو المبدئي:** المعتقدات حول الصواب والخطأ، فهي تتألف من القيم والمواقف التي تحدد معايير لتمييز الحق من الباطل أو مجرد الظالمة، على سبيل المثال: معايير حقوق الإنسان في نهاية الحرب الباردة.

- **المعتقدات السببية:** هي المعتقدات حول تأثير السبب تقدم مبادئ توجيهية أو إستراتيجيات للأفراد على كيفية تحقيق أهدافها...فعلى سبيل المثال: المعتقدات المتغيرة للقادة السوفيات حول الفعالية (أو بتعبير أدق عدم فعالية) من استخدام القوة أثرت على قرارهم في عام 1989 بعدم استخدام القوة للحفاظ على أوربا الشرقية تحت السيطرة السوفياتية.

- **وصفات السياسة:** هي أفكار محددة البرنامجية التي تسهل وضع السياسات من خلال تحديد كيفية حل مشاكل سياسة معينة، وهم في صميم المناقشات المتعلقة بالسياسات وترتبط بالاستراتيجيات والبرامج المحددة للسياسات.

تعتبر الأفكار إحدى مفاهيم التحليل البنائي لأن المنظور البنائي يركز على الجانب الاجتماعي للواقع فحسب البنائيين العالم هو عالم من الوعي الإنساني: يتشكل من الأفكار والمعتقدات واللغات والخطابات.

7- نقد النظرية البنائية:

أبرز الانتقادات التي نالتها البنائية والتي وجهت من قبل خصمها الفكري أي الواقعية الجديدة، وهي:

-التشكيك بالأهمية العظمى التي تولها البنائية للأنماط الاجتماعية، خاصة على الصعيد الدولي، واعتبر الواقعيون أن هكذا أنماط موجودة بالفعل لكن يمكن تجاهلها بسهولة من قبل الدول الكبرى حينما تتعارض مع مصالحها.

-لم يتقبل الواقعيون فكرة أن الدول تدخل بسهولة بعلاقات صداقة مع بعضها بناء على نوع تفاعلهم الاجتماعي، فهكذا هدف ربما يكون مرغوب بالمبدأ، لكنه غير قابل للتطبيق بالممارسة، لأن تركيبة النظام الدولي تجبر الدول على التصرف بأنانية.

-من المشاكل التي أغفلتها البنائية هي شعور الدول بالريبة أو عدم اليقين تجاه بعضها البعض، أي عدم التأكد من النوايا الحقيقية سواء الحالية أو المستقبلية، كما أغفلت مشكلة الخداع، فالبنائية اعتبرت أن التفاعل الاجتماعي بين الدول يكون صادقا وصريحا على الدوام.